القضايا الاجتماعية في القصة القصيرة المنشورة بعد عام ٢٠٠٠م

إعداد

الباحثة/ إيمان متولي

الملخص العربي

كان غياب العدالة الاجتماعية وتدني المستوى المعيشي في مصر قبل عام ٢٠١٠م الدافعين الرئيسيين وراء الثورة في يناير ٢٠١١م. فقد كان المصريون يعانون بشدَّة من خلل ميزان العدالة الاجتماعية وغياب عناصرها مثل الحريَّة، والمساواة، وتكافؤ للفرص. فشهدت مصر زيادة في معدلات الفقر، والبطالة، وانتشار الفساد وانتهاكات حقوق الإنسان في هذه الفترة، فيما استفادت طبقة صغيرة من النخبة المقربين للنظام من الثروات والامتيازات. فتأثرت أسس الحياة الكريمة، وزادت الفجوة الطبقية نتيجة اتساع حجم شريحة الفقراء، وتآكل الطبقة الوسطى. وكان لهذا الاضطراب الاجتماعي تأثيره على الإنتاج الفني والأدبي بوجه عام، فشغل الأدباء والفنانون بأوضاع المجتمع المتردية، وشاركوا في ثورته، وانعكس ذلك في إنتاجهم.

Research Summery

The absence of social justice and low living standards in Egypt before 2010 were the main factors behind the revolution against the political system in January 2011. Egyptians suffered greatly from a lack of social justice and its elements of freedom, equality, and equal opportunities. Egypt witnessed an increase in poverty, unemployment, corruption, and human rights violations during this period, while a small class of elites close to the political system benefited from wealth and privileges. The foundations of decent life were affected, and the class gap increased because of the expansion of the poor segment and the erosion of the middle class. This social turmoil had an impact on cultural and literary production. Writers and artists were preoccupied with the dire conditions of society, participated in its revolution, and this was reflected in their output.

مقدمة

تتمثل الحقوق الاجتماعية للأفراد في حزمة من الخدمات الاجتماعية التي تضمنها الدولة لمواطنيها لتحسين مستوى معيشتهم، وتمتعهم بالضمان الاجتماعي، والحفاظ على كرامتهم، وتشمل هذه الحقوق ضمان المستوى المعيشي اللائق بما يشمله من توفير المسكن الملائم، والمرافق الصحية، والتعليم، والعمل، والرعاية الاجتماعية، وغيرها من الخدمات التي تؤثر على حياة الأفراد بشكل مباشر، كما يؤدي غيابها إلى تدهور أوضاعهم، مما يدفعهم في غالباً للثورة، كما حدث في يناير ٢٠١١م. ويلقي هذا البحث الضوء على أهم القضايا الاجتماعية التي تنبهت القصَّة القصيرة لتأثيرها على المجتمع، وعكسها الإنتاج القصصي لكتابها قبل عام ٢٠١٥م ، وهي قضية "المستوى المعيشي اللائق"، وستستعرض الدراسة ذلك في مبحثين كالتالي:

المبحث الأول: قضية "المستوى المعيشي اللائق" كنموذج للقضايا الاجتماعية التي تناولتها القصَّة القصيرة قبل عام ٢٠١٥م.

المبحث الثاني: بعض المختارات القصصية التي تناولت قضية المستوى المعيشي اللائق كنموذج للقضايا الاجتماعية.

وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد

****

المبحث الأول: قضية "المستوى المعيشي اللائق" كنموذج للقضايا الاجتماعية التي تناولتها القصَّة القصيرة قبل عام ٢٠١٥م.

يعد الحق في المستوى المعيشي اللائق من الحقوق الشاملة والمتَّسعة، ويشمل الحق في السكن، والمأوى الملائم، والتخلص من الفقر، والعمل اللائق، وحظر السخرة، والضمان الاجتماعي، والمساواة وعدم التمييز. يتداخل هذا المفهوم للمستوى المعيشي اللائق مع مفهوم العدالة الاجتماعية. وإن كان مفهوم العدالة الاجتماعية أكثر عمقاً، فهي "تلك الحالة التي ينتفي فيها الظلم والاستغلال والقهر والحرمان من الثروة... والتي يغيب فيها الفقر والتهميش والإقصاء الاجتماعي، وتنعدم الفروق غير المقبولة اجتماعياً... والتي يتمتع فيها الجميع بحقوق اقتصادية واجتماعية وسياسية وبيئية متساوية".[١] وبالنظر إلى ظروف المجتمع المصري منذ أواخر التسعينات وحتى قيام ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م، نجد معاناته تتلخص في غياب العدالة الاجتماعية والمستوى المعيشي اللائق بكل مفرداته؛ الأمر الذي أشعر الناس بالتهميش والرؤية الضبابية للمستقبل، فكثرت الاضطرابات، وبدأت تظهر الحركات الاحتجاجية. وكان الفضاء الافتراضي الذي خلقته شبكة الانترنت مساحة شاسعة يتناقل النَّاس فيها أراءهم، ويشجعون بعضهم البعض على التمرُّد على هذه الأوضاع ورفضها. وقد كان لهذه الحالة السياسية والاجتماعية المضطربة أثرها على المنتج الأدبي بوجه خاص، فلم تخلُ أيَّ مادة أدبية من الإشارة لهذه الأحداث من قريب أو بعيد، أو السخرية منها، فجسدتها أعمال الفنانين والأدباء على اختلافهم، ولم يتوقف موقف المثقفين والأدباء عند مجرد الرفض والانتقاد والسخرية من هذه الأوضاع في إنتاجهم الفني؛ بل نزلوا مع الثائرين إلى ميدان التحرير، وكانوا في مقدمة المطالبين بالتغيير. أمَّا القصَّة القصيرة، التي كانت مسايرة للأحداث السريعة والمتلاحقة، فأعادت إنتاج عناصرها، ونفذت إلى عوالم وطبقات مستعصية، لتنقل معاناة الناس بتفاصيلها الدقيقة، وأجزائها المعقدة.

فتتفاعل مع المتلقي الذي يعيد إنتاج المشاهد في مخيلته، ويكمل المساحات الفارغة التي لم يملأها الكاتب، لتكتمل صورة المعاناة في ذهنه، فيستمر في إنتاج دلالاتها.

المبحث الثاني: مختارات قصصية تناولت قضية المستوى المعيشي اللائق كنموذج للقضايا الاجتماعية.

قصَّة "أكل العيال" لخيري شلبي:

تناولت هذه القصَّة حالة من الفقر والمعاناة التي تشهدها فئة كبيرة من المصريين، من خلال تصوير حياة أسرة تنتمي لإحدى المناطق العشوائية. وقد أظهر الكاتب بمهارة الظروف الصعبة التي تحيط بهذه الأسرة، وكيف تجاهد الأم لإطعام أولادها. فالقصَّة كأنَّها لوحة وثائقية لمعاناة امرأة من حي شعبي، في رحلتها اليومية لجمع طعام أسرتها، بمعاونة زوجها سائق السيارة الأجرة الذي يكدح أيضاً لتوفير رزق أسرته، وإذا كانت القصَّة تنتهي على نحو مأساوي، بحادث أليم تفقد فيه المرأة ذراعها، "فتمضي حاملة أكل العيال بالذراع الآخر، فإنَّ هذه الصورة تصبح صورة مجازية بالغة القوة للشريحة الأكبر من الشعب المصري، الذي يمضي في حياته مجتراً الآلام، وكل أمله أن يبقى فقط على قيد الحياة"[٢]. فبطلة القصَّة "أم هبة" ربَّة منزل تعيش مع أسرتها في حارة "الوطاويط" بمنشية ناصر، وهي أم لسبعة أبناء أكبرهم ابنتها "هبة" التي تعينها في تحمل مسئولية أخوتها. ويبدأ يوم "أم هبة" مع أذان الفجر، حيث تبدأ معاناتها اليومية من رغبتها في الوضوء لصلاة الفجر فلا تجد الماء، فيسمعها الجيران وهي تسبُّ العيشة و"اللي عايشنها"، ذلك أنَّها ما إن تصل إلى "حوض المياه متعشمة أن يكون سرسوب الحنفية المفتوحة من صلاة المغرب قد ملأ البستلة، فإذا بها لا تجد نقطة ماء واحدة تتوضأ بها لصلاة الفجر... دقائق معدودة ونسمع صوت باب شقتها ينفتح ثم ينغلق، نتابع صوت خطواتها وهي تمشي تحت شبابيكنا، فنعرف أنَّها حملت البستلة على رأسها وهرولت بها إلى حنفية الصدقة عند مزلقان منشية ناصر."[٣] أمَّا الزوج فهو يصحو بعدها هي وابنتها، فتعدُّ له الابنة فطوره ليخرج بعد ذلك إلى طلب رزقه. وتنزل

الأم بعده مباشرة "حاملة مخلاة من الكتان في قعرها حلة صغيرة. تجري إلى الفرن البعيد في أعماق الجبل تقف في الطابور لمدَّة تقرب من نصف ساعة تشتري في المتوسط خمسين رغيفاً... لكنَّ الفرن لا يقبل ولا جمهور الطابور يقبل أن يعطيها كل هذا العدد من الأرغفة... مما يضطرها إلى إخفائها في المخلاة والتوجه إلى فرن آخر"[٤]. تذهب الأم بعد لتشتري القليل من الفول والطعمية التي لا يتجاوز نصيب الفرد منها اثنين فقط. وإلى أن تعود تكون ابنتها "هبة" قد أيقظت أخوتها وأعدَّت لهم حقائب المدرسة وساعدتهم على ارتداء ملابسهم، وما أن تدخل الأم بالطعام حتى يأتي عليه الأطفال بكامله. وبعد خروجهم إلى المدرسة، تقوم إلى ماكينة الخياطة لتصلح وترقِّع الملابس التي تتقاضى عليها أجراً بسيطاً من جيرانها، فتجمع هذا الأجر إلى جانب بيع بيض بعض الدجاجات التي تربيها، لتصرف من هذا المال على تعليم أبنائها. أمَّا الأب فهو ما إن يجمع بعض المال في منتصف النهار حتى يعود لها لتشتري به ما يسد رمق الأبناء في الغداء، فتتصرف في حدوده، ويعود هو أدراجه لاستكمال طلب رزقه. وتنتهي القصَّة نهاية مأساوية؛ حيث كانت أزمة الخبز عام ٢٠٠٨م، وكان وقت امتحانات أبنائها، فأرغمتها أزمة الخبز "على النزول من بيتها مبكراً، ربما قبل أذان الفجر بقليل لعلها تكون أول واقف في الطابور الذي يستطيل كل دقيقة"[٥]. لتشتري الخبز وتحضر فطور الأبناء قبل ذهابهم للامتحان، ومع لهفتها على إحضار الخبز وطعام الفطور؛ وأثناء عودتها المسرعة والمهرولة يصادف مرور أحد آلات البناء الضخمة التي تشبه عجلاتها عجلات الدبابات، "ولحظة أن مالت نحو جسر السكة الحديد لتعبر المزلقان، كان هناك من هو أكثر عجلة من أم هبة الملهوفة على العودة إلى عيالها... هذا المتعجل داس على طرف شبشب أم هبة من الخلف دون أن يقصد طبعاً، فانكفأت على بوزها منطرحة على الأرض فوق بطنها وقد غرق وجهها في دم مخلوط بالفول المدمس، في نفس البرهة مرَّت الدبابة فوق ذراعها فبترته تماماً."[٦]ووسط ذهول الناس وصراخهم، والطعام المبعثر على الأرض والدماء، يتفاجأ النَّاس بأمّ هبة

تهب واقفة لتجمع الطعام دون وعي، بذراعٍ واحد "وهي تصيح في فجيعة تلفظ أنفاسها الأخيرة ياخرابي يا مصيبتي السودة أكل العيال راح! ساعدوني يا خلق أكل العيال طار! أكل الـ..عيا.. وسقطت على الأرض في غيبوبة وذراعها الباقية تحتضن ما جمعته من أرغفة.[٧]

قصَّة "أولاد الشوارع" لطنطاوي عبد الحميد طنطاوي

في هذه القصَّة يحاول الكاتب ملامسة الواقع القاسي الذي يحيط بفئة تقع على هامش المجتمع، وتعاني مستوى معيشي متدني، عبر مشاهد واقعية نراها تتكرر في أماكن كثيرة. وتدور أحداث القصَّة حول مأساة صبيّ مراهق، فقد أباه في حادث مرور، ونقله المارَّة إلى طوارئ مستشفى قريب، وللأسف كان هذا المستشفى استثمارياً، فبقي فيه الأب مدَّة ثلاثة أيام بغرفة العناية المركزة ثمَّ مات، لتبدأ إدارة المستشفى بمطالبة الابن بدفع تكلفة الأيام التي قضاها أبوه في غرفة العناية، وهي مبالغ طائلة ل طاقة له بها، فحاول إخبارهم بأنه وأباه لا يملكان شيئاً، فحتى مسكنهما عبارة عن حجرة وحيدة، في شقة من أربع حجرات، تسكن بها ثلاث أسر أخرى ودورة مياه واحدة، فأخذ مدير المستشفى في مساومته على جثمان أبيه مستغلاً فقره وعوزه. وأمهله مدَّة ليفكر فإما أن يدفع المبلغ أو أن يترك لهم الجثة ويدفعون هم له مقابلها، ويكسب هو مبلغاً جيداً يبدأ به مستقبله. فيعود البطل إلى حجرته حزيناً، فتحضر رفيقته التي لم تتجاوز الست عشر ربيعاً فيقص عليها ما حدث، فيبكيان سوياً ويتذكران طيبة الأب، أمَّا الصبي فيكشف الراوي قرب نهاية القصَّة أنَّه ليس والده الحقيقي، ولكنَّه انتشله من الشارع، وأنقذه من موت محقق، ثمَّ تبناه فأصبح هو كل عائلته. وبعد أن تذكرا سوياً مآثر هذا الرجل؛ ظلا يفكران فيما يمكنهما أن يفعلاه لجمع المبلغ المطلوب، فسرقاتهما لا تزال سرقات صغيرة لا تتجاوز المئة جنيه، وبينما هما مستغرقان في التفكير؛ خطرت للفتاة فكرة قبول عرض الرجل، لعلهما يجدان فرصة للفرار من قسوة الحياة في هذا المكان، فغضب الصبي في البداية، لكنَّها أقنعته بعد ان عددت له مزايا الصفقة،

خصوصا أنَّه ليس أباه الحقيقي، ولن يضيره شيء إذا ترك لهم الجثَّة، فعزما على الاستفادة لأقصى درجة من الموقف، وتوجها في الصباح إلى المستشفى ليطلبا مبلغاً أكبر يبدآن به حياتهما.

الخاتمة

اشتمل هذا البحث على عرض لإحدى القضايا الاجتماعية الهامَّة التي تأثرت بها القصَّة القصيرة، وأكثر من تناولها كتَّاب القصَّة المعاصرون، وهي قضية "المستوى المعيشي اللائق". وقد خلصت الدراسة إلى عدة نتائج منها:

١- إنَّ التغيُّرات التي طرأت على المجتمع المصري وأثَّرت فيه بدأت إرهاصاتها قبل عام ٢٠٠٠م، واستمرت في التصاعد تدريجياً إلى أن وصل الأمر لحد الثورة على النظام الحاكم في ٢٠١١م. وقد انعكس ذلك على مضمون القصَّة القصيرة التي تناولت القضايا الاجتماعية.

٢- كان الفقر هو القاسم المشترك في جميع القصص التي تناولت هذه القضية.

٣- استخدم كتَّاب القصة القصيرة الكثير من الألفاظ العامية في وصف يوميات أبطالهم، وشكل مسكنهم، ولعل ذلك يرجع إلى أنَّ العامية أقرب لخيال المتلقي من الفصحى فتعينه على العيش مع أبطالهم في أجواء منازلهم.

٤- انتقد الكتَّاب القصة عناصر مهمة تتعلق بالعدالة الاجتماعية وبالأخص الحصول الخدمات مثل التأمين الصحي والمأكل والمأوى الآمن.

٥- أمَّا بالنسبة للملامح الفنية للقصَّة القصيرة المعاصرة، فقد تميزت بما يلي:

a. القصَّة القصيرة اليوم فجَّرت طاقات سرديّة مختلفة في النصّ القصصي؛ مستعينة بآليات متعددة مثل استخدام اللغة غير المنطوقة من نقاط وفواصل، والمساحات البيضاء، علامات الترقيم، والشعرية أو الاستفادة من شعر النثر.

b. من الملاحظ أن أبطال هذه القصص هم الأشخاص الأكثر ضعفا والمهمشين، فهم إما المرأة أو الطفل أو الشخص الذي يعاني الشيخوخة والمرض أو العجز.
c. غلبت اللغة التقريرية على بعض القصص خصوصا عندما يتحدث الكاتب عن أنظمة حكومية مثل الضمان الاجتماعي.

وهناك عدة توصيات لهذا البحث منها ما يلي:

١- إفساح المجال للقصص التي تحمل مضامين جادَّة، والنقاد الجدد الذين يرون الأدب من منظور جديد أقرب للواقع الثقافي المعاش، وأن يتم تكوين قنوات تفاعل بين الإعلام وكتَّاب القصَّة القصيرة، لإثراء النقد والإبداع القصصي.

٢- ضرورة الاهتمام بعلم الاجتماع الأدبي، والذي يثري جانبي الأدب والاجتماع معاً، وتشجيع الباحثين على دراسة هذا الجانب الذي يقف في الخط الفاصل بين قسمي اللغة العربية وعلم الاجتماع؛ حتى يمكن إثراء القائمين على نقد الأدب.

المراجع والمصادر

أولا: المصادر.

١- **خيري شلبي** – مجموعة "ما ليس يضمنه أحد" – سلسلة كتاب اليوم – مؤسسة أخبار اليوم – القاهرة – ٢٠٠٩م.

٢- **طنطاوي عبد الحميد** – مجموعة "الخادم" – سلسلة الكتاب الفضي – نادي القصة بالتعاون مع الهيئة العامة لقصور الثقافة – القاهرة – ٢٠١٤م.

ثانيا: قائمة المراجع

١. **إبراهيم العيسوي–** العدالة الاجتماعية والنماذج التنموية مع اهتمام خاص بحالة مصر وثورتها– المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات – ط١ – بيروت – أبريل ٢٠١٤م.

٢. **عزمي بشارة** – ثورة مصر من جمهورية يوليو إلى ثورة يناير – ج ١ – المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات – بيروت – الطبعة الأولى – مايو ٢٠١٦م.

ثالثا: المقالات والدوريات

٣. **أحمد بوسف** – استراتيجيات السرد والأخلاق في الدراما المصرية– مقال منشور في مدونة الكترونية في ٢ أغسطس ٢٠١٤م– http://ayoussef47.blogspot.com/2014/08/blog-post.html

الهوامش:

(١) ابراهيم العيسوي – العدالة الاجتماعية والنماذج التنموية، مع اهتمام بحالة مصر وثورتها – المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات – بيروت – أبريل ٢٠١٤ – ص ص ١٤، ١٥.

(٢) أحمد يوسف – استراتيجيات السرد والأخلاق في الدراما المصرية – مقال منشور في مدونة الكترونية بتاريخ ٢ أغسطس ٢٠١٤م –
http://ayoussef47.blogspot.com/2014/08/blog-post.html

(٣) خيري شلبي– قصة "أكل العيال" – مجموعة "ما ليس يضمنه أحد" – سلسلة كتاب اليوم– مؤسسة أخبار اليوم– القاهرة– ٢٠٠٩م – ص ١٤٢.

(٤) خيري شلبي – قصة أكل العيال – المصدر السابق ص ص ١٤٣، ١٤٤.

(٥) خيري شلبي – قصَّة "أكل العيال" – المصدر السابق – ص ١٤٥.

(٦) المصدر السابق – ص ١٤٨.

(٧) المصدر السابق – ص ١٤٨.